

مقدمة

في جو التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين . وبعد : فإن رسول الله ﷺ يقول : « أنا نبي التوبة » والواقع أن الطريق إلى التوفيق في عمل الحق الذي أرسل الله به رسوله إنما يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح ، ولقد كان رسول الله ﷺ يعيش في جو من التوبة مستمر ، ولقد روى عنه أنه كان يقول ما معناه : يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ويقول : يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنني أتوب إليه وأستغفره في اليوم مائة مرة ، وما كانت توبة رسول الله ﷺ عن ذنب وحاشاه ﷺ وهو المعصوم ، وما كانت توبته ﷺ عن غفلة ، كلا ، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه ، وإنما كانت توبته توبة عبادة وتوبة عبودية ، ومن أجل ذلك كان يكثر منها عبادة وعبودية ، وكان يكثر منها ليكون في داخل الإطار الذي رسمه الله سبحانه وتعالى بقوله : (إن الله يحب التوابين) ، والتوابون هم الذين يكثرون من التوبة .

وإن للتوبة الصادقة خصائص ، إنها أولاً تخرج الشيطان من القلب فيصبح طاهراً بريئاً من كل دنس ، وهذا هو المغزى العميق من وراء كل الجدل والماراة في حادث شق الصدر ، وما من شك في أن المغزى الذى نأخذه من شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه هو الطهارة الكاملة للصدر ، ونشأ رسول الله ﷺ منذ بواكير حياته مطهراً نقياً ، وأول خصائص التوبة إذن إنما هى الطهارة والبراءة التامة .

وإذا أخذنا شق الصدر بالنسبة للرسول ﷺ بمثابة التوبة بالنسبة لنا ، فإننا نقول إن من خصائص التوبة حينما تتكرر فى صدق وإخلاص أن تملأ القلب سكينه ، لأن الإنسان بالتوبة الصادقة يلقى بنفسه فى الرحاب الإلهى فيسكن إلى الله ، وكفى بالله هادياً وكفى بالله نصيراً ، إنه بالتوبة وهى نوع من اللجوء إلى الله ، والتضرع إليه والإجابة يسلم الأمر إلى الله وفى التوبة تسليم ، وفى التوبة توحيد ، وفى التوبة توكل على الله فيمتلئ القلب سكينه ، وإذا كانت الأحاديث الشريفة تقول عن شق الصدر فى المرة الأولى : إن الملكين استخرجا حظ الشيطان من القلب الشريف ، فإنها تقول عن شق الصدر فى المرة الثانية : إن الملكين ملأ قلبه الشريف سكينه .

وتتكرر التوبة فتصل إلى ما عبرت عنه الأحاديث الشريفة عن شق الصدر الشريف فى المرة الثالثة ، وذلك أن الملكين ملأ القلب الشريف حكمة ، وكذلك فى التوبة إذا دامت . ثم إنها إذا تكررت انتهت بحب

الله العبد المكثّر من التوبة إن الله يحب التوابين .
وكلمة رسول الله ﷺ . أنا نبي التوبة معناها في النهاية أنا النبي
الذى أنبت راسماً الطريق الذى يسير بالإنسان في خطوات منتظمة رتيبة
إلى استخراج حظ الشيطان من القلب ، ثم إلى امتلاء القلب سكينه ،
ثم إلى امتلاء القلب حكمة ، ثم إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده
التائب .

وأما بعد فإن من طرائف العقول المستبصرة ما رواه صاحب كتاب
الشامل ونقله عن الإمام ابن كثير في تفسيره من أن أعرابياً جاء إلى
الضريح النبوى الشريف وقال :

السلام عليك يا رسول الله ، لقد قال الله في كتابه العزيز :
(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم
الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) .

وقد جئتك مستغفراً لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى ثم أنشأ يقول :
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبن الإقاع والأكُم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
وانصرف الأعرابى ، وكان جالساً بالقرب منه رجل صالح يسمع
كلامه ، فأخذته سنة من النوم فرأى النبي ﷺ في النوم يقول له : الحق
بالأعرابى فبشره بأن الله قد غفر له . .

هذا وبالله التوفيق ، ، ،